سعد الدولة ودوره في إعلاء شأن اليهود أثناء الحكم الايلخاني

الدكتور عبد الرحمن فرطوس
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة بغداد

المقدمة:

أحدث الغزو المغولي بقيادة هولاكو للمشرق الإسلامي في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وإسقاطه الخلافة العباسية، والغائها بشكل نهائي، أن أوصل العالم الإسلامي إلى حالة لم يكن قد وصلها من قبل، عندما أصبح جزءاً كبيراً منه يحكم من سلطة غير مسلمة، ونتج عن ذلك إلغاء الأساس الديني للدولة ، وأصبحت كل الطوائف متساوية من الناحية النظرية، إلا ان واقع الحال يشير إلى أن العصر المغولي تميز بظاهرة محاباة الحكام الأيلخانيين الجدد للطوائف غير المسلمة كالنصارى، وإتباع النحل الأخرى التي جاءت مع الغزو المغولي كالشامانيين والبوذيين على حساب المسلمين.

وفيما يخص اليهود، فان المصادر تشير إلى انهم لم ينالوا تلك الحظوة، وربما نالهم ما نال المسلمين من تقتيل وتعذيب، إلا ان هذا الواقع سرعان ما تغير بشكل جذري، عند وصول ارغون خان رابع الحكام الايلخانيين للعرش في سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، فأصبح اليهود في عهده هم أصحاب السطوة والنفوذ في البلاد، عندما تمكن أحد أبناء جلدتهم، وهو سعد الدولة اليهودي من الوصول إلى منصب صاحب ديوان الممالك، والذي انتهز فرصة وجوده في هذا المنصب، ليحقق كل ما يرفع من شأن قومه .

يتناول هذا البحث بشكل أساس دراسة السبل والطرق التي سلكها سعد الدولة اليهودي للوصول إلى مركز السلطة الايلخانية، ودوره في رفع شأن اليهود على حساب الطوائف الأخرى، وبالأخص المسلمين منهم، كما يتطرق إلى أسباب نهاية هذا النفوذ الذي لم يستمر لأكثر من سبع سنوات، وهي مدة حكم ارغون خان .

ارتقاء سعد الدولة للمناصب الحكومية في عهد ارغون خان :

تعطي المصادر إشارات عامة يفهم منها ان سعد الدولة كان فضلاً عن كونه رجلاً كفؤاً يمتاز باللباقة والقدرة الفذة في إدارة عمله من جانب ، فانه من جانب آخر كان يمتاز بسلوكه الانتهازي وعدوانيته، وكثرة استخدامه للوشايات والدسائس للإيقاع بخصومه، ولا يتردد في سلوك كل الطرق، بما فيها المشينة منها للوصول إلى هدفه، ولذلك أخذ يترقى في المناصب الحكومية بسرعة حتى وصل إلى قمتها ، وهو منصب صاحب ديوان الممالك الايلخاني، في مدة قصيرة.

اما عن خلفية هذا الرجل، فان المصادر تشير إلى ان سعد الدولة كان ينتسب إلى أبهر احدى توابع مدينة زنجان [١]،ويشوب سيرته قبل ان يعمل بالديوان الحكومي نوعاً من الغموض، فابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) ينفرد بروايته بالقول، انه كان في أول أمره يعمل دلالاً في سوق الصناعة بالموصل قبل أن يمتهن الطب وينتقل إلى بغداد [٢]. في حين ان أغلب المصادر الأخرى تكاد تجمع على انه كان أصلاً يشتغل بالطب ببغداد [٣] .

ومهما يكن من سيرته الأولى، فقد عرف عنه مخالطته لأهل بغداد[٤]، فضلاً عن علاقته الوثيقة بالفرس والأتراك والمغول في البلاد والديار الخاضعة لحكم الايلخانيين، وعرف عنه المامه بلغات عديدة [٥] . وعلى الرغم من حرفة الطب التي اشتهر بها ، فانه كان ثرياً يتعاطى التجارة واستثمار الأموال، مما يسر له عمله هذا الوقوف على حقيقة أحوال العمال والمتصرفين في بغداد [٦] .

غيـــر ان الحـــدث المهـــم فـــي حيـــاة ســـعد الدولـــة حصـــل ســـنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)، في بداية حكم ارغون خان، عندما عين تونسكا، أحد أمراء المغول شحنة لبغداد، وهي وظيفة عسكرية يقوم صاحبها بحفظ الأمن العام، فُعندما وصل تونسكا إلى بغداد وباشر عمله، اختار سعد الدولة ليكون نائباً له [٧] . وعن دواعي اختيار هذا الرجل الذي اشتهر بكونه طبيباً حاذقاً لهذه الوظيفة التي لا تمت لعمله بصلة، فان المصادر تسوغ ذلك لكونه أحد الأغنياء وله صلات واسعة بالمسؤولين الحكوميين، وكان على معرفة تامة بأحوال بغداد، وعلى حد وصف رشيد الدين (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) له " كان خبيراً بشؤون بغداد كبيرها وصغيرها " [٨] . ومن خلال هذه الوظيفة أظهر سعد الدولة كفاءته وقدرته على فرض شخصيته على المحيطين به نظراً لما يتمتع به من قدرة وإحاطة بالأمور، فهو على الرغم من انه لم يتسلم مهمة أخرى غير نيابة الشحنة، فانه سرعان ما أصبح الحاكم العالي الفعلي لبغداد، ولم يعد لقتلغ شاه صاحب الديوان في بغداد، ومساعده مجد الدين (المشرف) أي نفوذ يذكر[٩] .

وعلى الرغم من نجاحه في هذه الوظيفة، فان سعد الدولة لم يبق فيها لأكثر من ثلاث سنوات، حيث تم استدعاءه من قبل ارغون خان ليكون ضمن سلك الأطباء الخاصين به في تبريز[١٠]. وترد في المصادر روايتين مختلفتين قليلاً عن الطريقة التي وصل فيها سعد الدولة إلى عمله الجديد، الأولى وردت عند رشيد الدين ومفادها، ان خصومه في بغداد قد ضاقوا ذرعاً به، وقد ساءهم تسلطه واستبداده عليهم، فقرروا التخلص منه عن طريق الوشاية به، فأرسلوا وفداً إلى الاردو، وقد قابل الوفد بعض امراء المغول المتنفذين، وأشار عليهم بالقول ان سعد الدولة أحد الأطباء الحاذقين، ولابد من الانتفاع منه في ملازمة الايلخان، وكان يفترض من هذه الوشاية هو الإضرار به ، ولكنها على العكس كانت سبباً في ارتفاع منزلته من حيث لا يقصد خصومه، فقد أصبح صاحب حظوة ومقام عند الايلخان، بعد ان استدعاه لملازمة بلاطه [١١] .

والرواية الثانية وترد عند خواندمير (ت ٩٤٢هـ/١٥٤٤م)، وفحواها ان سعد الدولة نفسه هو الذي أراد العمل في بلاط الايلخان، فأوعز إلى أقاربه في تبريز العمل على مساعدته في ذلك، وكان بينهم جمعاً من الأطباء اليهود

الملازمين لدار الايلخان، وقد وجد هؤلاء الفرصة عندما تحدثوا إلى ارغون خان بحديث يوحي ظاهره بالكيد والوشاية، ولكنهم في الحقيقة كانوا يهدفون إلى إدخال سعد الدولة في بلاط الايلخان عندما ذكروا له " ان سعد الدولة يمضي أوقاته في فراغ دون عمل في ولاية بغداد، وقد ضرب عرض الحائط بالخدمة في الاردو، ولأنه يتقاضى تكاليف معيشته من أموال السلطان، فانه من المناسب ان يعمل مثلنا من الصباح حتى المساء، ولا يسمح له بالتغيب عن معسكر السلطان"(١٢) .

وعلى أية حال ، مهما كان الاختلاف بين الروايتين ، فان كلتاهما تجمعان في النهاية على ان ارغون خان اصدر أوامره باستدعاء سعد الدولة من بغداد إلى تبريز وإلحاقه بهيئة الأطباء الخاصين به .

وفي بلاط ارغون وجد الفرصة المناسبة التي كان ينتظرها لتحقيق طموحه، وذلك عندما مرض ارغون خان، فاهتم سعد الدولة بعلاجه، ووصف له نوعاً من الدواء، أفاده وخفف من آلام المرض عليه، فارتفعت منزلته لديه وأصبح مقرباً منه (١٣) . وبما معروف عنه من دهاء، فان سعد الدولة لم يترك هذه الفرصة تمر دون ان يجني منها الفوائد الشخصية، ومن بينها الانتقام من خصومه في ديوان بغداد، وقد استخدم المكيدة للوصول إلى هدفه، ولاسيما بعد ان عرف حب الايلخان وشغفه بجمع الأموال، فأسر إليه إسراف النواب والكتاب في جميع البلاد والديار، لاسيما أولئك الذين يديرون ولاية بغداد، فانهم لا يتركون عن قصد - سوى عشر الأموال يصل لخزانة ديوان الممالك، فضلاً عن انهم فتحوا أبواب الظلم والعداء على مصراعيهما بين الناس، وأصبح العدل في الولاية في تراجع ونقصان(١٤) .

وعن طريق ذلك التحريض استطاع سعد الدولة أن يحصل على أمر من الايلخان بأن يتوجه إلى بغداد برفقة الأمراء المغول وهما كل من اردوقيا وبيان شكورجي في أواخر عام (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، ليبذلوا ما في وسعهم من أجل تحصيل الأموال ومعرفة أحوال العمال (١٥) . وعند وصوله إلى بغداد كانت أغلب إجراءات سعد الدولة تهدف لجمع أكبر مبلغ ممكن من الأموال، فالتجأ إلى طريقة جديدة لجباية الضرائب المستحقة للديوان عن طريق تحصيله ما تبقى من أموال الأعمال السابقة (البقايا)، وضرائب العام الجاري في آن واحد، فضلاً عن ذلك، فان الضرائب استوفيت بالجور والعسف إذ

يصف رشيد الدين ذلك بقوله " جمعها بضرب العصا والتعذيب" (١٦) . ولم يسلم من ظلمه وتعسفه حتى أولئك الذين كانوا مسئولون عن جباية الضرائب للسلطة المغولية، وقد وردت إشارات كثيرة تدل على ذلك، ففي أواخر سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) عذب نجم الدين كاتب الجريدة على بقايا أوجبت عليه، فلما أحس بالعجز عن الدفع قتل نفسه(١٧). وفي السنة نفسها، صودرت أموال وأملاك ضامن ضرائب الأعمال الحلية (١٨) . وفي بداية السنة الآتية (٦٨٧هـ/١٢٨٨م) عذب زين الدين الحظائري ضامن (تمغات) بغداد، فأدى مالاً وباع أملاكه جراء ما تخلف عليه من الضمان (١٩) .

ويبدو ان سعد الدولة في مقابل هذا التشدد أراد ان يظهر أمام الناس انه يمارس عمله في حدود الأمانة والعدالة، فيروي صاحب الحوادث الجامعة انه خفض عن بعض الناس العاجزين عن الدفع، ما قرر عليهم من ديون(٢٠) .

ومن خلال تلك الإجراءات، استطاع سعد الدولة من جمع الأموال الطائلة في مدة قصيرة، ذهب بها إلى تبريز، وقدمها للايلخان، الذي خلع عليه الكثير من الهدايا، وعينه في وظيفة (المشرف) بشكل دائم على جمع وإنفاق أموال ولاية بغداد(٢١)، وهذه الوظيفة لها أهمية واسعة في العهد الايلخاني، ويشرف القائم عليها حتى على سلطة صاحب الديوان المحلي، وله حق مساءلته ومحاسبته، وهذا مما استدعى أن يعود سعد الدولة مرة أخرى إلى بغداد لممارسة عمله الجديد (٢٢) .

ويبدو ان طموح سعد الدولة لم يقف عند حدود وظيفة المشرف على ديوان بغداد، فهو ما ان وصل بغداد وأشرف على مسؤولية أموالها، حتى جمع أموالاً تزيد عن ضعف المرة الأولى التي عمل فيها في هذه الولاية، وقد استخدم الأساليب السابقة نفسها، فضلاً عن لجوئه إلى التوسع بنظام الضمان في جباية الضرائب(٢٣)، وعندما توجه إلى بلاط ارغون خان مع الأموال التي جمعها حظي بإعجابه، وزاد اعتقاده بخبرته وحسن كفاءته إلى حد كبير، فقرر ان يعينه مسؤولا عن ديوان الممالك الايلخاني، ولاسيما بعد ان شهد أحد كبار الأمراء المغول وهو اردوقيا بحقه بالقول : " لقد أدخل سعد الدولة كل هذه الأموال إلى الخزانة العامرة على دفعتين، وذلك من خلال ولاية واحد، وبمدة قصيرة جداً، وانتهى من مراجعة وتنظيم حساباتها

ومعاملاتها بمنتهى الدقة، كما عمر تلك الولاية، فلو توكل إليه مهمة الإشراف على جمع وتنظيم أموال جميع ولايات السلطنة، لأوصل أحوال الخزانة والدولة إلى درجة يحتار العقل الخبير أمامها ويعجز، من حيث تنظيم أمور الرعية، وتوفيره الرفاهية لأهالي كل مدينة وولاية " [٢٤].

وبعد ان عين في منصب صاحب ديوان الممالك الايلخاني كان سعد الدولة يدرك تماماً انه لا يستطيع ان يتمتع بالاستقلالية والانفراد بالسلطة دون التخلص من أقوى الشخصيات المغولية وأكثرها نفوذاً، والتي مثلها بوغا نائب الايلخان، ولاسيما ان هذا الأخير كان السبب في وصول ارغون إلى العرش، وقد أصدر الايلخان أمراً بأن لا يعاقب حتى في الجرائم الكبرى، ولا يحق لأحد في مساءلته سوى الايلخان نفسه، وكان من مظاهر نفوذه، أن يرليغات الدولة الرسمية الايلخانية كانت لا تعد نافذة إلا بخاتم منه[٢٥] .

وتبعاً لذلك أخذ سعد الدولة يسعى لتقويض نفوذه، ويتحين الفرص للقضاء عليه، وقد التقت مصلحته مع مصالح الأمراء وأركان الدولة الآخرين اللذين لم يستطيعوا تحمل انفراد شخص واحد بالسلطة، ومن حسن حظ سعد الدولة وحلفائه انهم نجحوا في مسعاهم، إذ ضعفت مكانة بوغا لدى الايلخان بسبب الوشايات التي ساقها عنه سعد الدولة، ولذلك قام ارغون خان بعزل نواب بوغا من مناصبهم، مما جعل الأخير يفكر في معارضة ارغون خان، فأرسل إلى جوشكاب حفيد هولاكو المقيم على ضفاف الفرات، واقترح عليه مساندته في شق عصا الطاعة على ارغون، غير ان جوشكاب أسرع إلى ارغون وأفشى إليه بمؤامرة بوغا وأعوانه . وبعد ثبوت التهمة على بوغا، تم إعدامه بأمر من ارغون خان في أواخر ذي الحجة سنة (٦٨٧هـ/١٢٨٨م) . ثم حامت شكوك ارغون حول جوشكاب، فأمر بإعدامه أيضاً [٢٦] .

ولم يقف الأمر بحدود قتل بوغا وجوشكاب، فقد دفع حرص ارغون على العرش والخوف من ضياعه إلى الشك في كل أبناء عمومته، فقرر التخلص منهم[٢٧]، ويذكر رشيد الدين ان عدد أفراد الاسرة الذين لقوا حتفهم نتيجة هذا الشك بلغ ثلاثة عشر أميراً [٢٨] . وقد فسحت كل هذه الأحداث

المجال واسعاً أمام سعد الدولة للتفرد بالسلطة والاستقلالية في اتخاذ القرارات المهمة، فوجه جل اهتمامه لإدارة شؤون عمله الجديد .

وبما ان سعد الدولة كان يعد صاحب خبرة ادارية ومالية كافيتين، فقد تمكن في غضون عامين فقط من ادارته لديوان الممالك من تنظيم الخلل الذي حدث في السنوات السابقة لولايته، وحسب وصف المؤرخ وصاف له بالقول : " كان رجلاً قديراً ماهراً في تدبير الشؤون وضبط أعمالها، ولم يهمل فيها شاردة ولا واردة"(٢٩). ولكن هذا لا ينفي ان جزءاً كبيراً من نجاحه يعود إلى أسلوب التشدد الذي اتبعه في جمع الضرائب، فقد ورد انه تم في عهده ان استوفيت ضريبة (القوبجور) المغولية التي تفرض على المواشي أكثر من مرتين في العام الواحد (٣٠) . في حين رفعت أقيام المكوس الأخرى كما هو حال التمغا التي تفرض على البيوع في الأسواق والمؤونة وغيرها (٣١).

فضلاً عن ذلك، تشير المصادر إلى انه أبلغ الايلخان، ان السبب الأول لخراب البلاد، هو كثرة النفقات الطارئة والمستمرة التي تصرف على المبعوثين الحكوميين، وقد أفلح في إقناع ارغون خان، بأن يصدر يرليغا تم بموجبه تحديد وتقليص ما يصرف من أموال على هؤلاء المبعوثين (٣٢) .

وبهذه الطرق تمكن سعد الدولة من تكديس الأموال الطائلة في ديوان الممالك، حتى بلغت الموارد أكثر من ألف تومان من الذهب (٣٣) . ونتيجة لذلك قدر ارغون عمل سعد الدولة، فيذكر رشيد الدين " ارتفع شأن سعد الدولة وقوي مركزه للغاية، وكان جاهه يسمو يوماً بعد يوماً " (٣٤). وفي عهده شهد منصب صاحب ديوان الممالك تطوراً كبيراً عندما توسعت سلطاته حتى أصبح يهيمن على كل شؤون الدولة ويملك تصريفها، لاسيما بعد أن قرر الايلخان ان لا يعرض الأمراء عليه أمراً دون مشورة سعد الدولة، في حين ان سعد الدولة فله ان يعرض في أي وقت يرغبه، وفي أي مكان، ما لديه من أموردون الانتظار للمشورة، ولذلك بلغ سعد الدولة أوج الاستعلاء والاستقلال (٣٥) .

ويبدو لنا انه فضلاً عن ما تميز به سعد الدولة من ذكاء ودهاء، ان هناك عواملاً أخرى أتاحت له ان يترقى في المناصب الحكومية بسرعة كبيرة، وان يتمتع بكل هذا النفوذ والسطوة، وهي :

١. تراجع كفاءة مسؤولي الدولة من المسلمين، ولاسيما بعد ان تمت تصفية عائلة الجويني المعروفة في بداية عهد ارغون خان، والتي كان لها الفضل الرئيس في تأسيس النظام الإداري الايلخاني ودوام استمراريته .
٢. الموقف العقائدي السلبي لارغون خان تجاه المسلمين، فالمعروف عنه انه كان يكن حقداً شديداً لهم، بسبب وقوف الكثير منهم إلى جانب عمه تكودار في الصراع الذي دار بين الاثنين، لكون الأخير قد اعتنق الدين الإسلامي، ولذلك بدأ ارغون في مستهل حكمه يصفي المسلمين، فلم يبق أحداً منهم في البلاط أولاً، ثم لاحقهم في وظائف الدولة الأخرى واستبدلهم بآخرين من أهل الذمة .
٣. وصول ارغون خان نفسه إلى العرش عبر تخطيه تعاليم الياسا، مما جعل الصراع محتدماً بينه وبين الامراء الكبار، وقد انتهى بإعدام معظم أمراء الاسرة الجنكيزخانية، مما أتاح لسعد الدولة المجال المناسب للانفراد بالسلطة والنفوذ .

وعلى أية حال، فان ارتفاع شأن سعد الدولة في عهد ارغون خان وانفراده بالسلطة لم يكن مرتبطاً بمسألة شخصية بحتة، وإنما كان في الواقع قد هيأ لقومه اليهود محيطاً أمدهم بكل أسباب القوة والحكم في بلاد المسلمين، فقد أسند سعد الدولة المناصب المهمة في البلاط لأبناء جلدته، وقسم ولايات الدولة الايلخانية على أقاربه، فقد عين أخاه فخر الدولة ايليابن صفي الدين، وقد اشتهر بالجهل، حاكماً على بغداد، ويساعده نصر بن الماشعيري اليهودي (٣٦)، ومنح شمس الدولة بن منتجب الدولة ولاية فارس (٣٧)، وعين أخا آخر له اسمه أمين الدولة حاكماً على مناطق الموصل وماردين وديار بكر(٣٨)، ووكل الأشراف على تبريز إلى ابن عمه مهذب الدولة بن منصور الطبيب (٣٩) . ولولا ان خراسان وبلاد الروم كانت في يد غازان بن ارغون خان وأخيه كيخاتو، لكان من المؤكد انهما قد حكمتا من قبل اليهود أيضاً(٤٠) . وهكذا فرض سعد الدولة سيطرته المطلقة على كل ولايات الدولة الايلخانية، فصار الحكام يطيعونه ويذعنون له، بل ان المصادر تنقل انه تسلط على عقل الايلخان وجعله يعتزل الامراء وينقطع عنهم، ويروي الوصاف ان ارغون عندما تولى العرش لم يكن يستطع رؤية الدماء، لكنه أصبح بفعل توجيه سعد الدولة عليه، والذي أدخل في روعه

تنقية البلاد من الشك والخيانة، أصبح يرى الخطأ صواباً، ويتوق شوقاً لسفك الدماء[٤١] .

موقفه من المسلمين:

كان سعد الدولة رجلاً ذكياً، فأراد استمالة قلوب الناس في بادئ الأمر، فأوعز إلى الأمراء والولاة ان يتم الفصل في الدعاوي القضائية في المحاكم على وفق الشريعة الإسلامية، كما أمرهم في ان يسعوا باسترداد حقوق المظلومين، وإعانة العجزة، وإجراء الصدقات على المستحقين لها[٤٢] . وفي رمضان سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م) بعث برسالة إلى عماله في بغداد، يوصي فيها برعاية الحجاج وتقديم المساعدة لهم[٤٣].

غير انه بعد أن أحس بعلو مكانته وانفراده بإدارة دفة الأمور في الدولة ظهرت نواياه الحقيقية للعلن، فاستبد وتكبر، ووضع أبناء جلدته في المناصب المهمة بدلاً من المسلمين، وقد وردت بعض الروايات التي تشير إلى ان بعضاً منهم كان يتفوه علناً بعبارات الاستخفاف والإهانة للمسلمين[٤٤].

ويروي الوصاف ان سعد الدولة نفسه استهان بالمسلمين فأورد ما نصه "... وقد أطلق لسانه بالاستهانة بالمسلمين والاستهزاء بهم واحتقر الأمراء ونهاهم عن الأخذ والعطاء، فصاروا لا يتجرؤون على قصد البلاد في شأن من الشؤون الضارة أو النافعة، في الوقت الذي ارتفع فيه شأن اليهود، وصاروا يقصدونه من مختلف البلاد ويهتفون بحياته ويقولون : "انه رفع شأننا وأقام لنا قرن خلاص ورجاء ومجد" [٤٥] .

فضلاً عن ذلك ، بلغ التعسف ضد المسلمين مداه عندما تجرأ سعد الدولة وعين جماعة من يهود تفليس ولاة على تركات المسلمين ، فأساءوا السيرة ، عندما أرادوا ان لا يورثوا ذوي الأرحام ، فاجتمع عليهم الناس وطردوهم من البلاد ، فصادفهم الاكراد في الطريق وقتلوهم[٤٦] .

وتشير المصادر انه عندما وجد سعد الدولة ان العديد من الأمراء والعلماء المسلمين قد نادوا بالتخلص منه وأعوانه، اندفع أكثر في عدائه لهم، وشرع في استغلال ارغون خان للقضاء عليهم، وقد تجاوز كل الحدود عندما أشار على ارغون بأن جنكيزخان كان نبياً، وان النبوة انتقلت بالوراثة إليه، كما أراد احلال (الياسا) الجنكيزخانية المقدسة عند المغول، بدلاً من

الشريعة الإسلامية . وعن ذلك يروي خواندمير قوله للايلخان مانصه : " ان النبوة موصلة بالميراث من جنكيزخان إلى حضرة السلطان، وقد يسرت العناية الالهية لحضرة السلطان ارساء قواعد الملك والملة، وتشييد مباني الدين والدولة على خير وجه ، وحيث ان النبي العربي هو وأصحابه وأنصاره قد رفعوا راية النصر متحدين، وقضوا على الكثير من المخالفين والمعارضين، ووضعوا قلادة القبول والاعتناق لأركان الإسلام في رقبة الخاصة من الناس والعامة، فلو ان سلطان العالم يتصرف بما تقتضيه همته العالية، ويسلك غاية اللطف مع المؤيدين له، ومنتهى القسوة مع المعارضين، لأمكنه ان يخلق أمة جديدة في هذا العصر، ويقضي على عادات ورسوم السابقين، وعلى قواعد وأطوار المتأخرين"(٤٧).

ويبدو ان هذا الكلام لقى صدى عند ارغون خان المعروف بعدائه الشديد للمسلمين، فأخذ يقدم على القتل لأي سبب من الأسباب، فقد بعث شخصاً باسم نجيب النحال، وهو يهودي آخر، إلى ولاية خراسان، وسلمه قائمة بأسماء مائتين من أعيان وأغنياء تلك البلاد ليتولى القضاء على حياتهم، ويحول أموالهم وأملاكهم إلى ديوان الممالك (٤٨) . كما كلف شمس الدولة بقتل سبعة عشر شخصاً من علماء ومشايخ اصفهان، اللذين لم يكن لهم ذنب قط، سوى سمعتهم الطيبة بين الناس(٤٩).

فضلاً عن ذلك، فقد أمر بعزل جميع المسلمين من العمل في ديوان الممالك في تبريز، وإحلال اليهود والنصارى بدلاً عنهم(٥٠) .

ولم تقف الأمور عند هذا الحد، فقد نقل خواندمير رواية يشير فيها إلى ان سعد الدولة اتفق مع ارغون خان على تحويل الكعبة المشرفة إلى معبد للأوثان، وتحويل المسلمين وسائر الخلق إلى الديانة الوثنية (٥١) .

وكان سعد الدولة يجتمع باشراف القوم، ويطلب منهم القول بما في ارغون من صفات نادرة لا تتوافر في غيره من الرجال، ثم يأخذ خطوطهم على الاعتراف بذلك، فكان بعضهم يوقع له رهبة أو رغبة، واندفع البعض الآخر في تزلفه فكتب عبارة " الناس على دين ملوكهم "،وهو ما كان يبتغيه سعد الدولة ان يشاع بين الناس (٥٢).

ولم يقتصر تأثير اليهود على الجوانب السياسية والادارية والمالية، بل امتد إلى الجانب الفكري، ففي بغداد قام أحد فلاسفة اليهود واسمه عز الدولة

سعد الدولة بن منصور الملقب بابن كمونة بتأليف كتاب سماه (تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث) تناول فيه أصول الأديان السماوية ومعتقداتها، وأدلة أربابها على صحتها، وذكر الطعون عليها، والإجابة على تلك الطعون ومناقشتها، مما أدى إلى غضب المسلمين عليه وهاجموا داره، إلا انه تمكن من الفرار إلى مدينة الحلة إذ كان يعمل ولده كاتباً هناك [٥٣] .

وقد هز كتاب ابن كمونة مشاعر بعض علماء المسلمين، فردوا عليه بالنقد والتقريع، ومن بينهم مظفر الدين أحمد بن علي المعروف بابن الساعاتي (ت٦٩٤هـ/١٢٩٥م) في كتابه " الدر المنضود في الرد على فيلسوف اليهود"[٥٤].

وفي هذا الجو المفعم بالعداء للمسلمين ظهرت بوادر النقمة على سعد الدولة واليهود عموماً، وفي هذا الصدد يروي صاحب الحوادث الجامعة انه في سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) كتب أعيان الناس في بغداد محضراً يتضمن الطعن في سعد الدولة واليهود، ولما علم سعد الدولة بذلك، أوصل خبره إلى ارغون خان، فأصدر أمراً بصلب جمال الدين الحلي ضامن تمغات بغداد في باب النوبي، بذريعة انه كان المحرض على هذا الطعن[٥٥].

نهاية سعد الدولة:

أدت سياسة سعد الدولة العدوانية إلى تصاعد السخط بين الأمراء المغول الكبار، كما هو حال المسلمين أيضاً، ولذلك صمم الجميع على قتله والتخلص منه، وتحينوا الفرص للحد من تدخل اليهود في شؤون الدولة وإنقاذ الناس من سطوتهم، وقد جاءت الفرصة المناسبة سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) عندما مرض ارغون خان مرض الموت، وأحس صاحب ديوان الممالك بالخطر بعد يأسه من شفائه، وباسلوبه المنافق الذي عُرف به، اسرع يفتش عن حماية لنفسه بالتزلف للمسلمين، وتحسين صورته أمامهم، محاولاً استمالة قلوبهم إليه، فأعلن التمسك بالشريعة الإسلامية مجدداً، وتخفيف الضرائب الباهضة عن كاهل الناس، وأرسل الأموال لتعمير الديار المقدسة في الحجاز[٥٦]، كما أصدر أوامره بكشف الظلامات وبذل الصدقات، وإطلاق سراح المسجونين، ومن جملة ما قام به إطلاق ثلاثين

ألف دينار كانت على أهل بغداد [٥٧]، وبعشرة آلاف دينار على أهل شيراز[٥٨]، وقد فعل مثل ذلك في مختلف أرجاء الدولة الايلخانية.

غير ان جميع هذه الأعمال لم تجد نفعاً، ولم تفد في تأخير أجله، أو في وقف الأذى الذي جلبه لقومه اليهود بسبب سلوكه العدواني، فسرعان ما قام أمراء المغول اللذين تضرروا من سياسة سعد الدولة بالقبض عليه وبطشوا به، وأرسلوا الأوامر بالقبض على أخوته وأقاربه وأوثقوهم بالقيود ونهبوا أموالهم، وتعرض اليهود للإذلال في كل أنحاء الدولة الايلخانية[٥٩].

وتنقل لنا المصادر عن ذلك حوادثاً كثيرة، ففي العراق القي القبض على فخر الدولة أخي سعد الدولة في واسط وحمل إلى بغداد، إذ القي في السجن ثم طولب بأموال الديوان، فأنكر أن يكون لديه منها شيئاً، فضرب بالسكاكين والسيوف، وقتل ثم قطع أرباً، وعُلق رأسه على جسر المدينة[٦٠]. كما قبض على مهذب الدولة بن الماشعيري، إذ قتل بطريقة بشعة [٦١]، وقتل معه يهودي آخر يعمل في الديوان يدعى ابن فلالة[٦٢] . في حين أرسل الأمير بايدو إلى الموصل من يقبض على أمين الدولة أخي سعد الدولة وقتله . ونتيجة لذلك شاع بين الناس ان السلطة فسحت المجال لنهب اليهود وسلب ممتلكاتهم [٦٣]، وقد وصف برصوما الصفي وصفاً دقيقاً، الإذلال الذي تعرض له المسؤولين اليهود بالقول : " صار من يحل ويربط ويرفل بالحلل الملكية، يرتدي ثياباً خرقة ويداه قذرتان، أي صار دباغاً أو مستجدياً أكف الناس بعد أن كان كاتباً أو آمراً مسلطاً"[٦٤].

أما أوضاع عامة اليهود، فان المصادر المتوفرة لم تعط الصورة الكاملة عنها، غير انه على ما يبدو ان رد الفعل تجاههم كان عبارة عن أحداث طارئة لم تدم طويلاً، وسرعان ما عادوا إلى حياتهم المعتادة، ومارسوا طقوسهم الدينية بحرية تامة، حتى تغيرت أوضاعهم مجدداً في بداية حكم السلطان محمود غازان (٦٩٤- ٧٠٣هـ/١٣٠٤م) الذي تشدد عليهم بفرض الجزية والزمهم بلبس الغيار[٦٥] .

المصادر

١) وصاف، أديب شرف الدين عبد الله الشيرازي (ت ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م)، تجزية الأمصار وتزجية الاعصار، المعروف بتاريخ وصاف، (طهران: طبع حجر، بلا ت)، ج٣، ص ٢٣٩. وزنجان : بلد مشهور من نواحي الجبال قريب من ابهر وقزوين . ابن عبد الحق ، عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤)،ج٢ ص٦٧٠.

٢) المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ أبو الفداء،(بيروت : دار المعرفة، بلا.ت) ج٤،ص١٧ .

٣) انظر رشيد الدين فضل الله (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون (القاهرة: مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٠)، ج٢،مج٢،ص١٣٩، مجهول، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في اعيان المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد (بغداد : المكتبة العربية، ١٣٥١هـ) ص٤٦٤ .

٤) وصاف، تاريخ وصاف، ج٣،ص٢٣٩.

٥) المصدر نفسه، ج٣،ص٢٤٠.

٦) رشيد الدين، جامع التواريخ، ج٢،مج٢،ص١٤١ .

٧) المصدر نفسه،ج٢،مج٢،ص١٣٩ .

٨) المصدر نفسه،ج٢،مج٢،ص١٣٩ .

٩) المصدر نفسه،ج٢،مج٢،ص١٣٩ .
١٠) خواندمير، غياث الدين محمد بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ / ١٥٤٤م)، دستور الوزراء ترجمة حربي سليمان، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٠)، ص٣٥٩؛يوسف رزق الله غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، (بغداد: مطبعة الفرات،١٩٢٤)، ص١٤٢.
١١) جامع التواريخ، ج٢،مج٢، ص١٣٩ .
١٢) دستور الوزراء،ص٣٥٩ .
١٣) وصاف، تاريخ وصاف،ج٣، ص٢٤٢ .
١٤) خواندمير، دستور الوزراء، ص٣٦٠ .
١٥) رشيد الدين،جامع التواريخ،ج٢مج٢، ص١٤٠ .
١٦) المصدر نفسه،ج٢،مج٢، ص١٤٠.
١٧) مجهول، الحوادث الجامعة، ص٤٥١.
١٨) المصدر نفسه، ص٤٥٤ .
١٩) المصدر نفسه، ص٤٣٣، جعفر خصباك، العراق في عهد المغول الايلخانين، (بغداد : مطبعة العاني،١٩٦٨)، ص ١١٩ .
٢٠) المصدر نفسه ، ص٤٥٠ .
٢١) خواندمير، دستور الوزراء، ص٣٦٠ .
٢٢) رشيد الدين، جامع التواريخ،ج٢، مج٢، ص١٤٠ .
٢٣) مجهول، الحوادث الجامعة، ص ٤٣٣، ص٤٥٧.
٢٤) خواندمير، دستور الوزراء، ص٣٦٠ .
٢٥) رشيد الدين، جامع التواريخ،ج٢، مج٢، ص١٣٥.
٢٦) خواندمير، حبيب السير في أخبار أفراد بشر،(طهران: كتابخانة خيام، ١٣٣٣هـ.ش)، ج٣،ص١٥٩.
27) Howorth.H.H,History of Mongols from the 9 th to the 19 century London : 1927) vol. 3 .p.330 – 331.
٢٨) جامع التواريخ ، جـ٢ ،مج ٢،ص١٤٨ ــص١٤٩.
٢٩) تاريخ وصاف ،جـ٣، ص٢٤٧.
30) p.petrushevsky , The socio – Economic conditin of Iran under the I L – khans , in c.H of Iran (manchester :1968), vol. 5. p.502
٣١) مجهول ،الحوادث الجامعه ،ص٤٠٤.
٣٢) الوصاف ،تاريخ الوصاف ، جـ٣ ،ص٢٥٧.
٣٣) المصدر نفسه ، جـ٣،ص٢٥٨.
٣٤) جامع التواريخ ،جـ٢، مج ٢، ص١٥١.
٣٥) خواندمير ، دستور الوزراء ، ص٣٦١.

٣٦) ابن الفوطي ،كمال الدين عبد الرزاق (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م)، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ،تحقيق مصطفى جواد (بغداد :١٩٦٢_١٩٦٥) ، جـ٤،ق٣ ، ص١٢٨.
٣٧) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج٢ ، مج ٢ ، ص١٥٢.
٣٨) المصدر نفسه ، جـ٢ ، مج ٢ ، ص١٥٢.
٣٩) المصدر نفسه ،جـ٢، مج٢ ، ص١٥٢.
٤٠) عباس إقبال ، تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيموريه، ترجمة عبد الوهاب علوب، (ابو ظبي :المجمع الثقافي ،٢٠٠٠)،ص٢٥٠.
٤١) تاريخ الوصاف ، جـ٣ ، ص٢٤٤.
٤٢) المصدر نفسه جـ٣، ص٢٤٤.
٤٣) خواندمير ، دستور الوزراء، ص٣٦٤.
٤٤) المصدر نفسه ، ص٣٦٤.
٤٥) تاريخ الوصاف ،جـ٣، ص٢٤٥، خصباك، العراق ، ص٢٠٢-٢٠٣.
٤٦) مجهول الحوادث الجامعة ، ص٤٥٥، يوسف رزق الله غنيمة ، نزهه المشتاق، ص١٤٦.وتفليس مدينه ببلاد أرمينيه الكبرى .انظر:ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنه والبقاع ،جـ١ ، ص٢٦٦-ص٢٦٧.
٤٧) دستور الوزراء ،ص٣٦٣.
٤٨) الوصاف ، تاريخ الوصاف ،جـ٣ ، ص٢٦٤.
٤٩) المصدر نفسه ،جـ٣، ص٢٤٦.
٥٠) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص٢٤٧.
٥١) دستور الوزراء ، ص٣٦٣.
٥٢) محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية (النجف :مطبعة القضاء ،١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ، ص٢٨٩.
٥٣) يوسف رزق الله غنيمة، نزهه المشتاق ، ص١٤٣. وابن كمونه هو عز الدولة سعد بن منصور بن سعد ،ابرز شخصية علميه يهودية في هذه الحقبة ، كان عالماً بالقواعد الحكمية والقوانين المنطقية ، مبرزا في فنون الادب والعلوم الرياضية ، وفضلاً عن كتابه المذكور اعلاه ، فقد صنف كتباً عديدة من بينها كتاب (التذكرة) في الكيمياء و(شرح الاشارات والتنبيهات لابن سينا) في المنطق.انظر: ابن الفوطي، تلخيص مجمع الاداب، جـ٤، ق، ص١٥٩-ص١٦١.
٥٤) يوسف رزق الله غنيمة ، نزهة المشتاق ، ص١٤٥.
٥٥) ص٤٦١- ص٤٦٢.
٥٦) خواندمير ، دستور الوزراء ، ص ٣٦٤.
٥٧) مجهول ، الحوادث الجامعة ،ص ٤٦٤.
٥٨) الوصاف تاريخ الوصاف ، جـ٣ ، ص٢٤٧.

٥٩) مجهول، الحوادث الجامعة ، ص٤٦٥-ص٤٦٦، خصباك، العراق ، ص٢٠٤.
٦٠) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الاداب ، جـ٤ ، ق٣ ، ص١٢٨.
٦١) مجهول، الحوادث الجامعة، ص ٤٦١.
٦٢) المصدر نفسه، ص٤٦١-ص٤٦٢ .
٦٣) المصدر نفسه، ص ٤٦٤- ص٤٦٦ ؛ خصباك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين، ص٢٠٣.
٦٤) تاريخ الدول السرياني ، ترجمة : اسحق ارملة السرياني، نشر على أجزاء في مجلة المشرق البيروتية لسنة ١٩٥٤-١٩٥٦ ، ص٣٩٤ .
٦٥) مجهول، الحوادث الجامعة ، ص ٤٨٣ .